٢ - الطريق إلى التصوف

بعد أن طفنا فى رحلة سريعة مع حياة الغزالى لا بد أن نتوقف عند أفكاره وآرائه . . وكيف كانت مؤلفاته علامات طريق فى الفكر الإسلامى . . وقد كتب الغزالى العديد من المؤلفات . . وأشهر هذه الكتب «المنقذ من الضلال» ، و«تهافت الفلاسفة» . . أما أعظم هذه الكتب على الإطلاق فهو بلا شك « إحياء علوم الدين » الذى تجاوزت صفحاته ثلاثة آلاف من القطع الكبير . .

وكما كتب الغزالى كل هذا الإنتاج الضخم . . فى الفقه والعبادات والتعريف بالدين . . وفى التصوف الإسلامى . . فقد كتب عنه أيضًا عشرات من الكتب التى ترد على أفكاره بعضها كان منصفًا بعض الشيء وبعضها كان ظالمًا للرجل . .

فقد كان لا بد أن يهاجمه الفلاسفة بعد أن هاجم الفلسفة كما فى كتابه « تهافت الفلاسفة » الذى ردوا عليه بكتابهم « تهافت التهافت » الذى ألفه ابن رشيد . .

وكان لا بد أن يرد عليه رجال الدين بعد أن هاجم أسلوب بعضهم فى الحياة . . وفى عرض الدين . .

كما كان لا بد أن يهاجمه الكثيرون فى المغرب العربى . . الذين أحرقوا كتبه . . وقد كان هذا الفعل من اسوأ الأشياء التى تركت آثارًا لا تمحى فى نفس الغزالى . . حتى إنه رفع يديه إلى السماء . . ودعا

على الذين مزقوا كتب الإحياء فى قرطبة .. وقال : « اللهم مزق ملكهم كما مزقوه .. وأذهب دولتهم كما حرقوه»..

وكما أن الغزالى قد كرهه البعض فى حياته .. فقد كرهه البعض الآخر وحاربوه حتى بعد أن رحل عن الحياة..

ولكن المعجبين به فى كل العصور لا يمكن حصرهم..

بل إننا نرى حتى من المستشرقين من وقفوا أمام عظمة هذه الشخصية بكل احترام .. مقدرين الجهد الهائل الذى قام به فى سبيل نشر ما يؤمن به أنه الحق..

وإذا كان البعض قد فتن بالغزالى لدرجة لا يقبلها هو لو سمعها وهو على قيد الحياة .. فهناك الحاقدون عليه بصورة لا يقبلها أى عقل مستنير ..

لقد غالى البعض فى حبه..

وغالى البعض الآخر فى كراهيته..

ولكن الذى يقرأ أفكاره بموضوعية سوف يرى نفسه أمام أحد عباقرة الإسلام..

وسوف يقدر الجهد الكبير الذى قام به هذا الإمام الجليل .. كما أن من يقرأ مؤلفاته سوف ينتفع بها انتفاعًا كبيرًا .. بما حوت من أفكار رائعة .. وبما أوضح ما عليه الإسلام من جلال وجمال وعظمة..

ومن يقرأ «المنقذ من الضلال» سوف يقوم برحلة فكرية من أعظم ما يمكن أن يسجله مفكر وهو يرى رحلة حياة الإمام العظيم . . الذى ابتدأ حياته فقيرًا معدمًا . . يبحث عن طريق . . فيقوم على رعايته صوفى فقير . . وتمضى به الأيام . . فيغترف من العلم . . ويخوض بحاره العميقة . . بجسارة غريبة . . ويلتقط كل ما فى عصره من صور العلم . . ثم ينجو من وسط مخاطر هذا العصر الذى كثرت فيه الفتن والدسائس والمؤامرات السياسية . . بشخصه . . وعلمه . . وقوة حجته . . وسعة اطلاعه . . وعمق نظرته للأمور والحياة . . ثم ينتهى من هذه الرحلة كما بدأ . .

بدأها على يد رجل صوفى . .

وانتهى وهو صوفى عظيم . .

صوفى عن علم وتجربة ومعاناة . . بجانب المتعة الفائقة التى يشعر بها القارئ لهذا الكتاب وهو يطوف مع قلم جبار رحلة فكرية نادرة المثال . . قلَّ أن نجدها فى سيرة أى مفكر أو فيلسوف . .

لقد قرأت مثلاً « التأملات » . . الكتاب الذى ألفه الفيلسوف الفرنسى « رينيه ديكارت » . . وهو يصور فيه أيضًا رحلته ليصل إلى اليقين عن طريق الشك . . ورغم أن الكتاب متعة ذهنية رائعة . . وأنه يحاول أن يصل إلى اليقين عن طريق الشك . . وأن يخرج من ذاته كل المعلومات الخاطئة والسليمة . . ثم يعيد ترتيب أفكاره . . ليأخذ الصالح . . ويترك السيىء . . ويصل إلى الكوجتو الشهير:

« أنا أشك إذن أنا أفكر . . إذن أنا موجود » . .

إن هذه الاعترافات رغم ما فيها من مضمون فكرى ممتاز . . فقد شعرت بمتعة فكرية أجمل وأرق . . وأنا أقرأ « المنقذ من الضلال » للإمام الغزالى . . كما أن أسلوب الغزالى ممتع . . كأنه يكتب بلغة القرن العشرين . . وأفكاره مرتبة . . منسقة ، وتسلسل الأحداث التى مرت به فى دنياه ينم على أننا أمام أديب مفكر فيلسوف . . متمكن من اللغة . . متمكن من المادة التى يريد إيصالها للناس . . واثق بعلمه ثقة بلا حدود . . وأهم من ذلك كله أنه يشعر شعوراً عميقًا بأنه صاحب رسالة . . وهذه الرسالة أن يجدد إيمان الناس بهذا الدين العظيم . . الدين الإسلامى . . وما يحمله بين ثناياه من طاقات هائلة . . لو عرفها المسلمون حق المعرفة لأصبحوا سادة الدنيا فى العلم والمعرفة . . والتقدم والحضارة . . ولأصبحت الحياة طيعة لينة فى أيديهم . . ولسادوا الدنيا كلها كما سادها الأجداد . . يوم عرفوا الدين على حقيقته ببساطته . . دون أن يغرقوا أنفسهم فى الجدل والسفسطة والمناقشات التى لا تؤدى إلى شيء ملموس . .

فالأجداد لم ينهكوا أنفسهم فى مناقشات عقيمة . .

ولا أغرقوا أنفسهم فى مصطلحات عسيرة على الأفهام . .

بل أنهم بإقامتهم شعائر الصلاة يعرجون بأرواحهم إلى الملأ الأعلى فى اليوم والليلة خمس مرات . . وبالصوم يروضون الجسد ويقهرون نوازعه وغرائزه . .

وبحج بيت الله يؤدون فرضًا واجبًا على القادرين . . فيلتقون بإخوانهم فى كل مكان . . ويتدارسون أحوالهم وشئونهم . . وتترعرع بين قلوبهم الرحمة والمودة والإخاء . . ويتذكرون القصة الخالدة . . قصة الخليل إبراهيم أبى الأنبياء . . وهو يقيم القواعد من البيت . . ويشعرون بمعاناة هاجر . . يوم أخذت تبحث لوليدها الرضيع إسماعيل بين الصفا والمروة عن الماء ليروى ظمأه . . فتنفجر الماء . . ماء زمزم من تحت أصابع قدمية . .

وفى طوافهم بالبيت العتيق . . يتذكرون عظمة نبيهم الكريم محمد ﷺ . . كفاحه الرائع . . وجهاده المتواصل . . لنشر راية الإسلام بين ربوع البشر . . وقبل كل ذلك . . إيمانهم بالله الواحد الأحد . . خالق الكون والحياة . . وما بعد الحياة . . وبرسالة محمد آخر رسل السماء . . هذه المبادئ البسيطة التى اعتنقها المسلمون الأوائل فى صدر الإسلام جعلتهم ينسون كل شيء إلا نشر نور الإسلام بين ربوع البشر . . ونشروه . . وتغلبوا على أقوى قوى هذا الزمان . . تغلبوا على الرومان والفرس . . وسقطت المدائن عاصمة كسرى فى يد المسلمين . . وفر الرومان مذعورين وطوى الإسلام بسرعة البرق أراضى شاسعة من كل قارات الدنيا . .

فما بال المسلمين . . قد أغرقوا أنفسهم فى الجدل . .

وما لهم وترهات الفلسفة ومتاهاتها؟

وما الذى سيجنونه من هذه الاختلافات التى أغرقوا أنفسهم بها؟

وما هذه الفرق التى دخلت الإسلام وهى غريبة على الإسلام ، والإسلام منها برىء!!

إن الغزالى يريد أن يرجع بالناس إلى النبع الأول والأوحد . . إلى القرآن الكريم . . وإلى نور النبوة . .

بالقرآن الكريم . . وبسنة رسول الله ﷺ . . ترتفع رايات الإسلام ويبزغ أمام الأمة الإسلامية النور والأمن والأمان . . وتختفى الأحقاد والأهواء والفتن . . وتختفى المنازعات والأغراض الذاتية . .

والذى يقرأ كتابه العظيم . . الضخم «إحياء علوم الدين» سوف يقوم برحلة عجيبة من خلالها يعرف كل شىء عن دينه . . يعرف كيف يهذب نفسه . .

يعرف كيف تكون العلاقة بين الإنسان وخالقه . .

وبين الإنسان ونفسه . .

وبين الإنسان وأخيه الإنسان . .

يعرف الحدود التى رسمها له دينه . . ليكون إنسانًا متكاملاً . . متوافقًا مع نفسه . مع ذاته . . والإنسان المتوافق مع ربه . . ومع نفسه . . ومع الناس لا بد أن يشعر بالسعادة والرضا . . ولا بد أن يشعر بالاستقرار النفسى . . ومن الصعب جدًا . . تلخيص هذه الكتب . . ولكن سوف نأخذ بعض النماذج . . وبأسلوب الغزالى نفسه . . لنرى كيف قدم هذا الرجل هذا الفكر الناضج . . وكيف أعطى صورة مشرقة للإسلام . .

ولا شك أن فلسفة الغزالى الباقية هى دفعة التصوف الإسلامى دفعة قوية إلى الأمام . . فالتصوف هو بر الأمان الذى وصل إليه . . هو الواحة التى شعر تحت ظلالها بجلال الإيمان . . وقوة اليقين . .

هو النبع الصافى الذى ارتوت منه روحه . .

إنه القائل عن الصوفية:

« ماذا يقول القائل فى طريقة أول شروطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى . . »

« ومفتاحها الجارى منها مجرى التحرم فى الصلاة استغراق القلب بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية فى الله تعالى ، وهو أقواها بالإضافة إلى ما تحت الاختيار . . »

وقال عنه أحد العلماء:

«رأيت الغزالى - رضى الله عنه - فى البرية، وعليه مرقعة وبيده عكازه . . وركوة، فقلت له: ياإمام . . أليس التدريس أفضل من هذا؟»

فنظر إلى شزراً وقال:

لما بزغ بدر السعادة فى تلك
الإرادة وظهرت شموس الوصل
تركت هوى ليلى وسعدى بمنزلى
وعدت إلى مصحوب أول منزل

وناديتني الأشواق مهلاً فهذه

منازل من تهوى رويدك فانزل

وقبل أن نتحدث عن فلسفة الغزالى الصوفية لا بد أن نحدد ما هى أهم معالم التصوف؟

التصوف فكر وعمل ودراسة وسلوك..

وإذا كان هناك اختلاف بين الصوفيين ، فهو اختلاف يدور حول فكرتين..

هل سبيل الوصول إلى الله يأتى عن طريق الدراسة والبحث .. أم أن الوصول يأتى عن طريق الزهد والتقشف؟

وحول هذه التساؤلات .. كان الاختلاف بين المذاهب الصوفية المختلفة ..

والتصوف الإسلامى بدأ فى نشأته بسيطًا .. فمن المسلمين من كان يصوم نهاره ويقوم ليله ، ويجاهد نفسه بالزهد والتقشف كما فعل عبد الله بن عمر ، وبلال بن أبى رباح ، وسلمان الفارسى .. ولكن هؤلاء جميعًا يمكن أن نطلق عليهم كلمة زهاد..

ولم تطلق كلمة الصوفية على جماعة محددة إلا فى القرن الثانى الهجرى .. عندما ترأس أبو الحسن البصرى متصوفة البصرة ، وإبراهيم بن أدهم متصوفة بلخ .. كما ذاع فى هذه الفترة تصوف

رابعة العدوية التى زهدت فى الدنيا حبًا فى الله .. والتى ذاعت كلماتها:

«والله ما عبدتك خوفًا من نارك ، ولا طمعًا فى جنتك ، ولكن حبًا فى ذاتك ..»..

ولم يكد يأتى القرن الثالث الهجرى حتى انتشرت المذاهب الصوفية .. فترى البسطامى الذى نادى بفكرة الفناء فى الله..

ونرى الحلاج الذى قال بإمكان الاتحاد مع الله .. أى يندمج فى الذات العليا .. أن يصبح جزءًا من الحقيقة الكبرى .. ولقد مات الحلاج قتيلاً بعد سلسلة من التعذيب .. عندما قال إن الله يمكن أن يحل فى جسم فرد من عباده..

ولقد اتجه بعض المتصوفين إلى الأبحاث الفلسفية ليقوم مذهبهم على أساس فلسفى .. فكان من هو أقرب من الفلسفة كمحيى الدين ابن عربى القائل من كلماته الشهيرة جدًا:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى

إن لم يكن دينى إلى دينه دانى

وقد صار قلبى قابلاً كل صورة

فمرعى لغزلان ، ودير الرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف
وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنَّى توجهت
ركائبه فالحب دينى وإيمانى

كما نرى تصوف عمر السهروردى أقرب إلى الفلسفة أيضًا منه إلى التصوف. ولكن كل هؤلاء كان أثرهم فى التصوف خافتًا إذا قورن بما قدمه أبو حامد الغزالى فى هذا الميدان .. لأن الغزالى ترك بصماته على القرون التى تلته جميعًا حتى يومنا هذا..

لقد جاء الغزالى ليقول إن هناك عالمين..

عالم الظاهر..

وعالم الباطن..

وإذا كنا ندرك عالم الظاهر بالحواس .. فإننا بالتيقن والإلهام ندرك عالم الباطن .. ولكن هذا الفيض لا يتم عن طريق اتحاد أو حلول .. ولكن بمثابة كشف روحى يحدث فى اليقظة أو فى المنام للمقربين إلى اللَّه .. أى أن أبواب المعرفة تفتح نوافذها للعابد لدرجة لا يستطيع أن يصل إليها العالم بعلمه .. وكان منهج الغزالى هو الشك .. وبذلك سبق فلاسفة العصر الحديث .. من أمثال «ديكارت» فى فرنسا ، و «ديفيد هيوم» فى إنجلترا .. وإن اختلفت النتيجة .. وهو يوضح ذلك بقوله:

«من لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال» . .

ولا شك أن عصر الغزالى بجانب ما كان فيه من صراع بين المدارس الفكرية المختلفة . . كان أيضًا عصرًا ساد فيه الترف . . وما تبع هذا الترف من فساد . .

ومن هنا فقد كان التصوف نوعًا من محاربة هذا الفساد بالعزوف عن الدنيا وما فيها من متاع زائل . .

ومن هنا فقد بعد الغزالى بفكره كما قلنا عن مذاهب الفلاسفة والمتكلمين والباطنية . . ويتضح عمق دراسته للفلسفة من كتابيه اللذين أصدرهما . . يشرح فى أولهما الفلسفة وهو كتاب «مقاصد الفلاسفة» . .

ويفند فى الثانى أوهام الفلاسفة وهو كتاب «تهافت الفلاسفة» . . المهم أننا نلحظ أن الغزالى يستمد فلسفته الإسلامية من القرآن والسنة . . والتصوف عنده مستمد من القرآن والسنة أيضًا . . والمعرفة يمكن أن نستمدها عن طريق التعلم العادى . . أو عن طريق العلم اللدنى . . المستمد من لدن الله سبحانه وتعالى . .

وهنا يجب أن نقف عند تساؤل مهم . . وهو : هل التصوف الإسلامى مستمد من الفلسفة الهندية وغيرها من الفلسفات؟ أم أن التصوف يستمد أصوله من روح الإسلام؟

الغريب أن الكثيرين من الذين كتبوا أبحاثًا مطوّلة عن التصوف الإسلامى يزعمون أن هذا التصوف مستمد أصلاً من الفلسفة الهندية أو الرهبنة فى المسيحية! وهذا زعم استنبطوه .. ولكنه بعيد - فى رأيى - عن الحقيقة..

فقد رأوا فى الفلسفة الهندية أن الإنسان يمكن أن يصل إلى مرحلة «النرفانا» .. أو الاتحاد بالذات العليا ، ورأوا أن بعض الصوفية فى الإسلام قالوا بالاتحاد .. فلا بد أن هذه الأفكار جاءتهم من هذه الفلسفات..

ورأوا فى الرهبنة المسيحية .. من يعيشون فى الأديرة بعيدين عن الناس ، وأن هناك من المتصوفين من يعتزلون الناس .. فلا بد أن يكون هناك تأثر من جانب هؤلاء الصوفية بالرهبان فى أديرتهم..

ربما يكون فى هذا شىء من الصحة..

ولكن التصوف الحقيقى .. المستمد من كتاب الله ، وسنة رسوله.. كما نراه عند الإمام الغزالى ليس متأثرًا من قريب أو بعيد بهذه الفلسفات .. ولا بهذه الأفكار..

فإن كان بعض الصوفية يقومون بالليل ، فلهم فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة..

فالقرآن يصف النبى ﷺ .. وعبادته بقوله فى سورة المزمل:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ [المزمل: ١ - ٤]..

ويقول فى هذه السورة أيضًا:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٠﴾ [المزمل: ٢٠]..

ونحن نقرأ فى القرآن الكريم ما يحث المؤمن على الطاعة، والأنس بالله، والاعتماد عليه..

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٤٢﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

ونقرأ فى القرآن الكريم أيضًا:

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ۝٢٠٥﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

و.. ما أكثر الآيات القرآنية الكريمة التى تحض على العبادة.. تلك العبادة التى تقرب الإنسان من الله.. فتصفو النفس بعد كدر.. ويشعر الإنسان بالسعادة للقرب من الله..

وما أكثر أحاديث النبى ﷺ . . فى فضل العبادة وقد كان النبى ﷺ نفسه مثلاً أعلى لعبادة الله وشكره . . وكلنا نعرف كيف كان يقوم الليل حتى تورمت قدماه . . فلما سألته السيدة عائشة رضى الله عنها:

« ألم يغفر اللّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟»

كان رد الرسول الكريم ﷺ:

« أفلا أكون عبداً شكوراً !!»

وهناك أيضًا ما يشير إلى أن العبادة توصل الإنسان إلى ما لا يخطر له على البال . . ونحن نتذكر حديث الرسول ﷺ عندما سأل حارثة كيف أصبح . . كان رد حارثة:

« أصبحت مؤمنًا باللّه حقًا . . عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى وأظمات نهارى . . وكأنى بعرش ربى بارزًا . . وكأنى أنظر إلى أهل الجنة وهم يتزاورون فيها وأهل النار وهم يتعذبون فيها » . .

فقال له الرسول:

«انتصرت فالزم» . . وفى قول آخر : « عرفت فالزم ».

كل هذا يعطى إشارة أن التصوف الإسلامى المستمد من القرآن والسنة له مناهجه . . وله أصوله الإسلامية . .

وعندما نتحدث عن التصوف فنحن نتحدث عن التصوف السليم المستمد من الكتاب والسنة . . كالذى اتبعه الإمام الغزالى . . ليس التصوف الملىء بالبدع والدجل . . أو الذى استمد من روافد بعيدة عن روح الإسلام وتعاليم الإسلام. .

والذى يترك أى فرض من فروض الإسلام باسم التصوف . . فالإسلام برىء منه. .

أو على حد تعبير سفيان الثورى:

« العلماء . . عالمان . . عالم بالله وبأمر الله . . فعلامته أن يخشى اللَّه ويقف عند حدود اللَّه. .

وعالم باللَّه دون أوامر الله فعلامته ألا يخشى الله فى حدوده» . .

كما نقرأ عن أبى يزيد البسطامى قوله:

« لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى فى الهواء، فلا تغتر به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود وأداء الشريعة» . .

وقد حدد ابن خلدون التصوف الإسلامى بقوله:

« هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة ، وأصله أن طريقة هؤلاء لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين. . ومن بعدهم طريقة الحق والهداية . . وأصلها العكوف

على العبادة. . والانقطاع إلى اللَّه - تعالى - والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلوة فى الخلود والعبادة ، وكان ذلك عامًا فى الصحابة والسلف . . فلما نشأ الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده . . وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا . . اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والتصوف» . .

وهنا يبرز سؤال . . حول اعتراض البعض على كرامات الأولياء:

إنه من المعروف إذا كانت هناك معجزات للأنبياء فهناك أيضًا الكرامات للأولياء . .

ويمكن مثلاً أن نسوق بعض الأمثلة القليلة التى تثبت هذه الحقيقة . . أمثلة على سبيل المثال . . لا الحصر . .

فقد روى أن أبا بكر الصديق قال لعائشة - رضى الله عنها - قبل وفاته . . وكانت زوجته حاملاً: إنما هما أخواك وأختاك . .

وقد ولدت زوجته بالفعل بنتًا . . بعد وفاته . .

والحادثة الشهيرة لعمر بن الخطاب . . عندما قطع كلامه فى إحدى خطبه على المنبر . . وقال: يا سارية الجبل . . الجبل . . وسمع سارية - وكان محاصرًا من قبل العدو - كلمات عمر تنساب إلى مسمعه عبر مئات الأميال . . ويلتجئ إلى الجبل وينجو من موت محقق . .

وقال أنس بن مالك رضى الله عنه:

«دخلت على عثمان – رضى الله عنه – وكنت قد قابلت امرأة فى طريقى فنظرت إليها شزرًا ، وتأملت محاسنها .. فقال عثمان – رضى الله عنه – لما دخلت :

– يدخل أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه .. أما علمت أن زنا العينين النظر؟ لتتوبن أو لأعزرنك!

فقلت : أوحى بعد النبى !!

فقال : ولكن بصيرة وبرهان وفراسة صادقة..»

والأمثلة كثيرة..

إن التصوف .. هو المنقذ فى هذه الحياة .. حيث تتجاذب الإنسان الأطماع والشهوات .. وحب الدنيا .. والتكالب عليها .. مع أنها لا تدوم لأحد .. ومع أن لقاء الله حق .. والموت حق .. فلا مناص لمن يريد أن يلقى الله بقلب مطمئن .. إلا أن يلجأ إلى هذا الطريق .. طريق التطهر .. طريق الصفاء .. طريق التصوف..

ولن نقف طويلاً أمام اسم «التصوف» هل ترجع هذه التسمية إلى لبس الصوف ، أو إلى صفاء النفس .. فالمهم أن طريق التصوف .. الملتزم بالشريعة هو الطريق إلى سعادة الدنيا والآخرة..

ولقد توصل الغزالى إلى هذه الحقيقة بعد مجاهدات كثيرة .. وبعد معاناة كثيرة .. لأنه ليس من السهل على الإنسان أن يترك الجاه

والشهرة . . ليسلك هذا الطريق . . إنه يقول فى كتابه «المنقذ من الضلال» :

«فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريبًا من ستة أشهر ، أولها رجب ، سنة ثمان وثمانين وأربعمائة . . وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ، إذ أقفل الله على لسانى حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يومًا واحدًا تطيبًا لقلوب المختلفة إلى ، فكان لا ينطق لسانى بكلمة واحدة، ولا أستطيعها ألبتة ، حتى أورثت هذه العقلة فى اللسان حزنًا فى القلب ، بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب ، فكان لا ينساغ لى ثريد ، ولا تنهضم لى لقمة ، وتعدى إلى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج وقالوا :

«هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج ، فلا سبيل إليه بالعلاج إلا أن يتروح السر عن الهم الملم» . .

« ثم لما أحسست بعجزى . . وسقط بالكلية اختيارى ، التجأت إلى اللَّه - تعالى - التجاء المضطر الذى لا حيلة له ، فأجابنى الذى (يجيب المضطر إذا دعاه) وسَهَّل على قلبى الاعراض عن الجاه والمال والولاة والأصحاب ، وأظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا أدبر فى نفسى سفر الشام ، حذرًا أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمى المقام بالشام ، فتلطفت بلطاف الحيل فى الخروج من بغداد وعلى عزم ألا أعاودها أبدًا ، واستهدفتُ لأئمة أهل العراق كافة ، إذ لم يكن فيهم مَنْ يجوز أن يكون الإعراض عما كنت فيه سببًا دينيًا ،

إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى فى الدين ، وكان ذلك مبلغهم من العلم» . .

« ثم ارتبك الناس فى الاستنباطات ، وظن من بعد عن الفراق أن ذلك كان لاستثمار من جهة الولاة ، وأما من قرب من الولاة وكان يشاهد إلحاحهم فى التعلق بى ، والانكباب على وإعراضى عنهم وعن الالتفات إلى قولهم ، فيقولون : هذا أمر سماوى ، وليس له سبب إلا عين أصابت أهل الإسلام وزمرة العلم» . .

« ففارقت بغداد ، ومزقت ما كان معى من المال ، ولم أدخر إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال ، ترخصًا بأن مال العراق مرصد للمصالح، لكونه وقفًا على المسلمين ، فلم أر فى العالم ما لا يأخذه العالِم لعياله أصلح منه» . .

« ثم دخلت الشام وأقمت به قريبًا من سنتين ، لا شغل لى إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة ، اشتغالاً بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، كما حصلته من علم الصوفية ، فكنت أعتكف مدة فى مسجد دمشق أصعد منارة المسجد طوال النهار . . ثم تحركت فى داعية فريضة الحج . . والاستمداد من بركات مكة والمدينة ، وزيارة رسول الله تعالى عليه الصلاة والسلام بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه فسرت إلى الحجاز» . .

« ثم جذبتنى الهمم . . ودعوات الأطفال إلى الوطن . . فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه . . فآثرت العزلة به أيضًا

حرصًا على الخلوة وتصفية القلب للذكر . . » . .

« وكانت حوادث الزمان ، ومهمات العيال ، وضرورات المعاش، تغير فى وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة ، وكان لا يصفو لى الحال إلا فى أوقات مختلفة ، لكنى مع ذلك لا أقطع طمعى منها . . فتدفعنى عنها العوائق وأعود إليها» . .

إن الغزالى الذى أصبح رائدًا من رواد التصوف . . وأحد أعمدته . . كتب من المؤلفات ما سوف تظل علامة على الطريق لكل من ينشد الطريق السليم . . وأن يفهم دينه فهمًا واعيًا مستنيرًا . . وأن يقترب من روح الإسلام . . وأهم كتبه «إحياء علوم الدين» ، و«الاقتصاد فى الاعتقاد» ، و«فضائح الباطنية» ، و«المنقذ من الضلال» . . و«معيار العلم»، و«تهافت الفلاسفة» . .

إن ميزة الغزالى أنه عندما كان يقدم دراسة فإنه لا يقوم بها إلا بعد أن يدرسها دراسة واعية مستفيضة . . يدرس جزئياتها وعمومياتها . .

إنه يدرس الفلسفة . . ويتعمق فيها . . وعندما يكتب يهاجم الفلاسفة . . فإنه لا يهاجم من فراغ . . ولكن يهاجمهم وهو يعرف مواضع الضعف فيهم . . ويهاجمهم وهو يقف على أرض صلبة . . والأرض الصلبة هى فهمه لحقائق الدين التى تختلف مع آراء الفلاسفة . . ومن هنا فقد هاجم الغزالى بعنف الفلاسفة عندما درس مشكلات « الميتافيزيقا» . . أو ما وراء الطبيعة . . وأنكر . . بل كفر

قول هؤلاء الفلاسفة الذين يقولون إن الله يعلم الكليات دون الجزئيات . .

وقال : إن اللّه يعلم بالكليات والجزئيات . . لأنه يعلم الظاهر والباطن . . وإن البعث سوف يكون بالروح والجسد . . واختلف مع هؤلاء الفلاسفة الذين قالوا بأن العالم قديم . . وقال بأن العالم حادث . . لأن اللّه خلق هذا العالم من عدم . . وهو فى هذا يختلف مع أرسطو وابن سينا والغرابى الذين قالوا بقدم العالم . .

ولكن هل هناك علاقة بين الأسباب والمسببات؟

وأجاب الغزالى بالنفى . . لأن العلاقة ليست ضرورية . . لأن كل ذلك يرجع إلى اللّه سبحانه وتعالى . . وتراه فى هذا متمسكًا بالمذهب الأشعرى . .

والإيمان عنده مراتب . .

مرتبة إيمان العوام . .

مرتبة إيمان المتكلمين . .

مرتبة إيمان المتصوفة . .

وبالطبع لأنه اعتنق التصوف فإن قمة الإيمان هى إيمان المتصوفة الذين يعرفون اللّه حق المعرفة عن طريق الحدس والإلهام . . وإن الطريق مفتوح أمامهم ليروا بأنوار قلوبهم الحقيقة . .

والذى يدرس الإمام الغزالى لا يمكن أن ينسى قدرته الفائقة فى الربط بين الأخلاق والدين .. لأنه مزج بين الفلسفة الخلقية ومجال الإلهيات .. والأخلاق عنده ليست مجرد شعارات نظرية .. ولكن الأخلاق عمل وسلوك .. يؤدى إلى الفضيلة .. والعمل الذى يرضى اللَّه ورسوله هو العمل الفاضل الذى يصلح به الفرد ويصلح به المجتمع .. ولكنه لم يترك الباب مسدودًا أمام العادات السيئة التى يتخلق بها الفرد .. فالإنسان يمكن أن يعدل سلوكه عن طريق التوبة.. فيسلك الطريق المستقيم .. أى أن الأخلاق يمكن أن تهذب إلى الأحسن .. وعلى الإنسان أن يسلك الطريق الأوسط فى مأكله ومشربه وملبسه .. وهو يستمد من القرآن الكريم والسنة هذه الآراء.. فالقرآن يقول:

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١)﴾ [الأعراف: ٣١].

﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧)﴾ [الإسراء: ٣٧].

﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩)﴾ [الإسراء: ٢٩].

والرسول العظيم ﷺ يقول:

«كل واشرب وتمتع بغير سرف ولا مخيلة»..

وللغزالى آراء طيبة فى التربية . .

والتربية فى نظره تبدأ منذ الطفولة ، فالطفل أمانة فى عنق والديه، وعلى الوالدين أن ينشأ الطفل على السلوك المستقيم ، وكيف يعامل الناس ، وعلى الأسرة أيضًا أن تعلم الطفل آداب المائدة واحترام الآخرين . . وتعليم الطفل مسئولية مهمة تقع على عاتق الأبوين . . ولا بد أن تكون هذه التربية مستمدة من الشريعة . . والتدليل فى رأيه يفسد الطفل . .

ويحدد الغزالى العلاقة بين المدرس والتلميذ . .

فالعلم رسالة فى عنق المدرس . . فلا بد أن يكون المدرس . . وهو المثل الأعلى للتلميذ قدوة لتلاميذه . .

ولا بد لكى نعرف قدر الرسالة التى أداها هذا الإمام العظيم . . مجدد القرن الخامس الهجرى . . الذى لقبوه عن جدارة بأنه حجة الإسلام . . أن نلتقى معه وجهًا لوجه من خلال ما كتبه فى كتابه الضخم الرائع « إحياء علوم الدين » . .

* * * * *